الذاتية والموضوعية في البحث التاريخي عند البيروني

د. هـاشم نـاصر حسين الكـعبي
جامعة كربلاء / كلية التربية

د.عادل محيّ شهاب
جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

الملـخص

يعد أبو الريحان البيروني (362- 442هـ) من العقليات الإسلامية المنهجية النادرة في الحضارة الإسلامية ، ومن أبرز نقاد الفكر التاريخي ، في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بل أنه سبق المؤرخين الغربيين في العصر الحديث أمثال مارو ورانكة في.

في منهجيته وموضوعيته في كتابة التاريخ فقد عالج مشكلة الذاتية والموضوعية في التاريخ في وقت مبكر ، مبيناً خطرها على الكتابات التاريخية ، ذاكراً العديد من هذه المشاكل منها العوارض النفسية والأسباب التي تعمي عن الحق ، كالتقليد الأعمى والعادة المألوفة والتعصب والتظافر واتباع الهوى والصراع على الرئاسة وغير هذا كثير وتعميقاً لهذا النهج ميز بين نوعين من الذاتية وهما :

1. الذاتية السلبية .
2. الذاتية الإيجابية .

وقد ذكر في الشطر الأول أنواعاً كثيرة – كما بينا في النص المذكور أنفاً – وكأنه مؤرخ علمي معاصر ، يرصد خطر كل صفة من صفات هذا الشطر وتباين سلبيتها ، جاعلاً النوع الثاني نوعاً مختلفاً عن النوع الأول ، مبيناً أن هذه النوع من الذاتية الإيجابية ، مستعيناً في ذلك بآيات قرآنية تؤكد ضرورة أيجادها بما يعرف بمبدأ التحقيق من الأخبار من خلال الآية الكريمة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أ"[1] ، فالتبين هو التحقق من الأخبار وعدم الثقة بأي خبر كان .

وبذلك يسعى البيروني إلى الحديث عن الموضوعية في التاريخ بشكل واسع وأفضل مما جاءت به التيارات الوضعية ولا سيما الاتجاه المادي الذي يرفض الأخبار التي لا تطابق الواقع اذ بين صحة المعادلة القائلة أن الخبر الصحيح هو ما طابق الواقع والخبر غير الصحيح مالا يطابق الواقع ، إلا أن البيروني لم يقف عند هذه المعادلة الضيقة بل يوسعها بأدوات أخرى مثل خبر الثقة والنبي المؤيد بالوحي ، وبذلك فقد أتى مؤرخنا البيروني بمفهوم جديد للموضوعية يختلف عن الموضوعية في الفكر الغربي .

Abstract

Abul Rayhan Al-Beirouni (362- 442)Hijri is considered as one of the rare Islamic methodology mentalities in Islamic Civilization and also one of the prominent critic of the historical ideology in the 4th century Hijri (10th century AD) .He even anteceded the western historians as Marrow and Ranke in his talking about subjectivism and objectivism in history.

He dealt with the problem of subjectivism and objectivism in history in earlier time explaining their danger on historical writings , mentioning many such problems like (psychological hindrances, and causes that blind truth, as blind imitation, and usual habits, fanaticism, collaboration, flinging struggle for positions and many others.

Going deep into these two types, he distinguishes between two types of subjectivism:

1-Passive Subjectivism.

2-Active Subjectivism.

As to the first type, he mentioned many kinds-as we have explained before- as if he were a modern scientific historian , watching and observing the danger of each property and explaining its passivity making the second type in such a way to be different from the first type, showing that the type of subjectivity is concerned with reasoning volition that understands the news item and can distinguish between the true news and that which is not true. This can be done through criticism stage and sensory observation with the help of some Holy Quran verses that ascertain the necessity of existing the principle of verification of the news item((You who believe ,be realized and sure of a news item carried by a dissipated .....). Realizing is the verification of the news items and

distrusting any other news whatever it is, unless scrutinized.

Therefore , Al-Beirouni tries to talk about objectivity in history in a way better and wider than the way it comes by the positive trends, particularly the materialistic trend in history. This rejects the news items that do not coincide with the facts and reality. He explained the truth of the formula that declares that the true news item is that one which coincides with the reality. He didn't stop at this formula ,but also expanded it with other items like (Reliable news items , and the Prophet who is supported by the Revelations). Therefore ,A1-Beirouni brings out news aspects for the objectivism different from that in the western thought.

المقدمـــة ...

قبـل الـدخول فـي موضـوع البحـث لا بـد مـن معرفـة مـاذا يعنـي مصـطلح (الذاتيـة) ومـاذا يعنـي مصـطلح (الموضوعية) ثم ننظر إلى أي مدى وفق البيروني في أن يتحدث عن مثل هذا الموضوع البكر وهو يعد في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي)،ونوازن بأمثاله من المؤرخين الغربيين، الذين جاءوا من بعده إذ يعدون التـاريخ علماً من العلوم وينتقل به من كونه رواية أدبية محسوبة على الأدب والفن إلى كونه علم نقد وتحقيق ولا علم تجربة واختبار .

أذن ماذا نقصد بالذاتية والموضوعية في البحث التاريخي ؟

استعمل هذاين المصطلحان في مناهج البحث العلمي للتعبير عن أسلوبين أو منهجين متضادين أحدهما يعتمد علـى النظرة الشخصية للباحث او ما اصطلح على تسميته بالذاتية والآخر يعتمد على الحقائق المجردة او الموضوعية[2] . فمـاذا نعنـي بمصـطلح الذاتية أولاً ؟

أولاً /مصطلح الذاتية :أن مصطلح الذاتية يعني : أن الذات تتصل بوجود ظـواهر ذاتيـة ، كالوجدان وأفعال الإرادة والفكر والخيـال التي لا يوجد فيها أثر للناحية الموضوعية [3] ، وهذا النوع من الظواهر الذاتية تتعلق بالجانب الفلسفي ولا بالجانـب العلمـي ، أي أن الجانب الفلسفي من الذات الإنسانية في التأمل والتفكر والإرادة شيء آخر غير الجانب الثاني من الذات التي تتعلق بالأهواء والميول والعواطف والتعصب وهذا الذي نعني به بالجانب الذاتي ، وإذا وجه إليه النقد من لدن العلماء ومن بينهم أبـو الريحـان البيرونـي كمـا سنرى ، فالذاتية هي العوامل التي تقود الباحث أو المؤرخ باتجاه خاص يوافق رغبات وميول وأهواء مـا يريـده المؤرخ لا مـا يريـده الواقع والعلم ، فما يريده العلم هو الحياد والموضوعية في حين أن ما يريـده المـؤرخ أو الباحـث التـاريخي الـذي يعتمـد علـى عوامـل الذاتية يتجه باتجاه معاكس لذلك ، "ولأجل ذلك وصف بعض النقاد الكتابات التأريخيـة بأنهـا تعبـر عـن ذات المؤرخ ، قبـل أن تغيـر عن الواقع التاريخي ، وقالوا إنَّ هذه المشكلة – الذاتية-من أبرز إشكالات كتابة التاريخ [4]".

فذات المؤرخ هي التي تؤثر سلبياً أو إيجابياً في تصويرالواقع التأريخي ، فإذا أبتعد المؤرخ عن مؤثراته الذاتية مـن أهواء وعواطف وميول كان مؤرخاً إيجابياً وأعطى للواقع التـاريخي حقه الموضـوعي ، فـإذا لـم يلتـزم المـؤرخ بالحيـاد الموضـوعي كـان مؤرخاً سلبياً ، والمشكلة تزداد تعقيداً إذا مال المؤرخ بكتاباته نحو المؤثر السلبي ، فكتـب التـاريخ بـأمر الخليفـة أو لأمـر السياسـة أو لأمر معتقده أو لأمر الحـزب ، وهكذا ينشأ التـاريخ المزيـف وينتقل لنـا علـى أنـه حقيقـة فـي حين أنـه تصـورات ذاتيـة لـم ترتـق إلـى مستوى الموضوعية إلا قليلاً ، وكان بإمكان المؤرخ أن يكون موضـوعياً لـو أنـه لـم يقحـم تصـوراته وتقويماتـه الخاصـة الدالـة علـى الأهواء والميول[5] . وسوف يظهر تعريف الذاتية أكثر وضوحاً حينما نتحدث عن مصطلح الموضوعية .

ثانياً / مصطلح الموضوعية :الموضـوعية فـي أبسـط تعريفاتهـا هـي الامتنـاع عـن التـأثر بـالتحيزات[6] فـإذا كـان البحـث خاليـا مـن التحيزات ، عد البحث موضوعياً وذا قيمة علمية ، فالموضوعية اذن هي الابتعاد عن كل مؤثر من المؤثرات الجانبية ولاسيما التـي تتعلـق بـالخبرة الذاتيـة مـن أهـواء أو ميـول أو تحيـزات تـؤثر سـلبياً فـي تصـوير حقيقـة الواقعـة وصـفاً وحكمـاً. إذن يطلـق مصـطلح الموضوعية للدلالة على المنهج أو الأسلوب المجرد من المؤثرات الذاتية أو سلبياتها[7] .

ومن هنا يظهر أن مصطلح الموضوعية هو إما أسلوب أو منهج يتجه بالبحث بأتجاه "عدم التأثر بالدوافع والأعراق والقيم والموقف الاجتماعي على ما ذكره صلاح قنصوة نقلاً عن جينسون[8]،وهذا هو الذي يعزز القول بأن الموضوعية هي موقف وحكم ولا يمكن أن تكون حياداً سلبياً فقط بل هو حياد إيجابي ، أي لا يمكن أن تكون الموضـوعية امتناعـاً عـن اتخـاذ موقـف أو توقـف عـن إصدار حكم ما ، بل تدل لفظة الموضوعية على محتواها ، دلالـة مباشـرة فـالحكم الموضـوعي حكـم قـد التـزم بالموضـوع المحكـوم عليه وصفاً دقيقاً وتفسيراً نابعاً من الموضوع [9].

فالموضوعي سواء أكان مؤرخاً أم عالماً فيزياوياً أم كيمياوياً ، لا يمكن أن يقف موقفاً سلبياً من الوقائع التي يشاهدها بل لا بد من أن يصدر حكماً معيناً باتجاهها، على أن لا يكون هذا الحكم نابعاً من أهوائه وبل من عقله الذي يرى الأشياء والحوادث ويميز فيما بينها وألا يكون هناك أي ضغط داخلي أو خارجي يجره إلى حكم يتفق والأهواء أو الميول .وهذا الحكم الذي يصدره العـالم هـو الذي يعرف بالمعرفة الموضوعية ، يقول بوبر "إن المعرفة تكون موضوعية ، إذا وجدت باستقلال تام عن الحالة الذاتية لعقل الفرد أو عقول الأفراد" [10].وهذا الاستقلال التام هو المطلوب في كل بحث تـاريخي أو غير تـاريخي لأن الهـدف الـذي يسـعى إلـى تأكيـده الباحث في أي قول أو نظرية أو بحث وألا لا ينجر الباحث إلى موقف ذاتي سلبي ليس له فيه علم أو معرفة ، وهو ما دعـى إليـه أبـو الريحان البيروني في كتابة التاريخ وقبل أن نتحدث عن الذاتية والموضوعية عند البيروني ، نحـاول أن نـرى الموقـف القرآنـي مـن ذلك لأن له الأثر الكبير على منهج البحث في العلوم عند العلماء المسلمين وتطورها ومن بين هذه العلوم علم التاريخ .

القرآن الكريم ونظرية الذاتية والموضوعية

لا نريد هنا أن نتحدث عن هذا الموضوع بتوسع ،لأنه موضوع طويل وعميق ولكن نريد أن نقف على بعض الآيات القرآنية التي تصرح بمعنى الذاتية والموضوعية في العلم ، لأن الذاتية والموضوعية في العلم كما هي الذاتية والموضوعية في العقيدة الإسلامية .

ان الحياة الانسانية لا تستقيم مع الذاتية والأهواء والكذب والابتعاد عن الصواب وممارسة الغش والتزوير والبغي بغير الحق ...الخ وهذا أمر قد صبت عليه عناية جل الآيات القرآنية لخطورته على حياة الإنسان وقيمتها وبينت إن (الهوى) بكل أنواعه وأشكاله ينبغي أن يعالج معالجة تربوية هادفة لمصلحة حياة الإنسان كما في قوله تعالى **"وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَأَنَّ الْجَنَّةَ هِيْ المأوى"** [11] .

وفي هذا المقام لا بد لنا من أن نعرج على مفهوم الهوى اصطلاحاً :أن مصطلح الهوى القرآني هو مصطلح مكثف للتعبير عن الذاتية والمزاجية التي يمكن أن تكون إلهاً أو معبوداً مطاعاً عند بعض الناس أو عند كثير منهم، كما وصف ذلك رب العالمين فقال **"أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ"**[12] فالهوى يمكن أن يكون عند بعض الناس إلها مطاعاً يأمر وينهى ومن ثم لاحق ولا حقيقة في كل ميدان علمي وإنساني وديني، ويرى الراغب الأصفهاني أن الهوى : هو ميل النفس إلى الشهوة [13]، وربما يتبادر إلى الذهن ، أن المقصود بالشهوة هنا الشهوة الجنسية فحسب ، بل هي كل شهوة أو ميل مع النفس بغير وجه ولا قناعة عقلية أو دينية ، فكل ميل هو شهوة وكل انحراف هو شهوة وكل شهوة تقود إلى ظلم أو شهادة زور ... الخ .

ويوسع الشريف الجرجاني معنى الهوى فيجعله "ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع "[14]،فالميلان واتباع الشهوات والمصالح الخاصة وإدعاء ما لم يكن لك وتحريف وتزوير الشهادات والتاريخ وما إلى ذلك ، من دون مراعاة الشرع أو قانون أو قواعد تمنع الانحراف ، كل ذلك وغيره يمكن أن يدخل تحت مصطلح الذاتية والهوى .

إذن الآية الكريمة تتحدث عن الذاتية بمصطلح الهوى وتبين خطورته وأن من أبتعد عن الهوى – الذاتية- تبين مكافئته . فالخشية من الله أو من القانون الشرعي توفر جانباً كبيراً من الالتزام بالموضوعية والابتعاد عن الذاتية ، وتدعم ذلك بالمكافئة بالجنة لمن اتبع الحق والصدق والعدل والخير ، وتنذر من اتبع هواه بالنتيجة الخاسرة على مستوى الدنيا وجزاء الآخرة .

ولو أردنا أن نبين موقف القرآن من الموضوعية باختصار ، وهي الجانب الثاني من موضوعنا لوجدنا في القرآن ما يشبع نهم الباحث العلمي في ذلك كما بين قوله تعالى **"وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً"** [15] .

تفيد هذه الآية وتغني الحديث عن الموضوعية بكل المعاني التي تطرقنا إليها آنفاً ، بل أنها تدعو بكل حزم وإرادة ، لان يتمتع الباحث العلمي بصفات التجرد والحيادية ، إذا شرع في البحث العلمي وذلك يتحقق بأقصى ما يمكن من ضبط النفس وعدم الميل والتهاون في أي قضية كانت ،سواء أكانت تاريخية أم طبيعية أم اجتماعية أم سياسية أم دينية ، وألا يجعل أمر العلم كالهوى بل على الباحث أن لا يتبع هواه ولا يقول شيئاً ولا يثبت رأياً بغير علم في أي قضية من القضايا أو أمر من الأمور فمصطلح "ولا تقف...." يفيد النهي عن السير والبحث بغير علم ، ولا سيما العلم هو المشاهدات البصرية والشهادات السمعية من الصادقين وأن الفؤاد هو العقل الذي يميز بين الحق والباطل من الأحاديث والأقوال والنظريات والأخبار فهذه الآية تؤكد الموضوعية وتأكد الابتعاد عن الذاتية بشكل جلي، وإذا لم تكن كذلك فما الموضوعية إذن ، وما الموضوعية العلمية ؟ غير أنها تعلمنا أن لا نتحدث بغير علم ولا نؤمن بغير قناعة علمية ولا نتبع رأياً بغير برهان ودليل وأن كل حديث بغير علم هو حديث هوى ، وحديث الهوى هو ما تأمر به الذاتية ، وحديث العلم هو حديث الموضوعية ، بل أن الآية الكريمة تنهى بقوة عن اقتفاء أي أثر أو منهج بغير علم، ولايرتكن فيه إلى أدوات العلم من سمع وبصر وعقل ..الخ سواء أكان الموضوع عقائدياً ام غير عقائدي .

وهذا ما يقضي بنا إلى نتيجة مفادها أن الموضوعية التي يدعو إليها القرآن بمقتضى هذه الآية الكريمة هي نظرية عقلية تفرض المشاهدة العلمية البصر والسمع والفؤاد (العقل) وكذلك السمع والفؤاد (العقل) ، ولنا أن نسأل أهناك غير ذلك من أدوات الموضوعية في العلم؟ وما هي الذاتية غير الكذب والتزوير والقول بغير حق وعدل وصدق وصواب؟ وما هي الموضوعية غير أن لا نتحدث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، كما وصف الله تعالى بعض الناس بأنهم يتحدثون بذاتية عالية من دون أي دليل سوى الهوى إذ قال **"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ"** [16] .

الآية الكريمة هي نقد واضح يتبع الذاتية ويستبعد أي وسيلة من وسائل البحث العلمي أو جميعها فالموضوعية التي يدعو إليها القرآن موضوعية توازي الموضوعية في العلم وزيادة ، لأن الموضوعية في أي بحث تتطلب الدليل والبرهان العقليين والذاتية في أي حديث لا تعتمد على دليل غير الهوى وما تشتهيه الأنفس ، ومن ثم جاء التنزيل ليؤكد أهمية الموضوعية في كل شيء وصولاً إلى الحقيقة ونهى عن الذاتية لأنها لا تتبع أي دليل سوى العناد أو الجحود أو الكذب والجدل بغير الحق ولخص كل ذلك بمصطلح الهوى واختصاراً للقول فإنَّ(الموضوعية) القرآنية واسعة المعاني يمكن أن نختصرها بثلاث معانٍ وهي :

1-الموضوعية القيمية الأخلاقية ، قيم الصدق والخير والجمال والحق .

2-الموضوعية المعرفية وهي ما يتعلق بحصول المعرفة عن طريق الحواس والعقل.

3-الموضوعية الثقافية ، وهي ما يتعلق بحصول المعرفة عن طريق العادات والتقاليد[17].

ما يعنينا من هذه الأنواع هو الموضوعية المعرفية التي تتعلق بالحواس والعقل معاً ، ونحن نعرف أنه لا ترتقى أي معرفة من المعارف إلى مستوى العلم إذا لم تتبع الخطوات الآتية وهي :

1. الملاحظة الحسية .
2. مبدأ التحقق .
3. النتيجة العلمية .

إنَّ الخطوة الأولى من الدراسات القرآنية ، تبدأ أولاً بالنظر فيما هو معطٍ ومن الأيات التي تعني بالنظر الحسي أو الملاحظة الحسية وأهميتها في البحث عن الحقيقة علمية كانت أو عقدية ، قوله تعالى :

"أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"[18] .

"أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) [19]

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً "[20]

"أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" [21].

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ "[22] .

"قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"[23] .

فالملاحظ في هذه الآيات وأخرى غيرها وعلى نمطها أنها تبدأ بتأكيد النظر الذي يعني تقليب البصر والبصيرة لأدراك الشيء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الرؤية [24] فمصطلح النظر في المصطلح القرآني يدعونا إلى إدراك الأشياء بالحواس أو بالتأمل أو الفحص العقلي لها وصولاً إلى النتيجة ، ولا يعني تركه بأي حال من الأحوال لأن له صلة عميقة ببناء المعرفة العلمية وكذلك بناء الإيمان . فموضوعات العلم كثيرة ولن يتم معرفتها إلا بالنظر ومن ثم أكد القرآن عليه وجعله مفتاحاً للعلم وسداً منيعاً أمام الهوى وعقباته .

وهو مصطلح يدل تأكيده مباشرة على أهمية الانشغال بالموضوعات المادية أو العالم المادي أو علم الظواهر الحسية ومعرفته لا تركه وعدم معرفته لما له من أثر في ترقية الإنسان معرفياً وتقوية إيمانه بالخالق تعالى تصاعدياً وصولاً إلى أسمى مراتب المعرفة ، وهو نظر مفتوح وحر ، لا يعيقه عائق ، لأنه يتوخى معرفة الحقيقة ، وإذا كان المقصود بالنظر في المصطلح القرآني ، فسوف تقل وتضيق الأهواء والميول وكل ماله صلة بمطمع مالي أو جاه أو منصب أو كذب أو تزوير ، وبهذا يمكن الرد على أولئك المستشرقين المشككين في تعاليم القرآن إذ وصفوتها بأنها تعاليم قادت المسلمين إلى التخلف العلمي [25] .

(2).إن هذه الآيات تؤكد بداياتها بفعل الأمر (قل) (قل أنظروا – قل سيروا) ، مما يقضي بأرباب العقول أن فعل الأمر في النظر، الحسي والعقلي أي الأستقراء العلمي أمر واجب وليس نزهة ذاتية أو نفسية والأمر هنا يقصد به التوجه العلمي لمعرفة الأشياء أو الظواهر أو القوانين التي تفيدنا نفعاً علمياً أو إيمانياً أو كلاهما ،يستقيه الناظر عبر هذا الاستقراء العلمي وأن ما يتوصل إليه من نتائج ستكون ذات قيمة على كل مستوى .

(3).أن هذه الآيات لا تقصر الحث على النظر العلمي بفعل الأمر(قل) فحسب بل ، توجه النقد لمن لا يقوم بهذا النظر ولا يعمل بفعل الأمر(قل)ويظهر ذلك عبر الاستفهام الإنكاري النقدي الذي يتمثل بالأداة (أفلم...) و (أفلا...) ، فهما أداتا نقد إنكاري لمن لا ينظرون بعقولهم ولا يسيرون في الأرض للبحث والتقصي في الحقائق و الظواهر الطبيعية .

فهذه الآيات وغيرها تضع اليد على الجانب الموضوعي المادي والنظر الحسي والعقلي معاً في العالم بسمائه وأرضه وكذلك الاهتمام فيها وما بينهما من ظواهر واكتشاف علاقة هذه الظواهر بعضها ببعض وصولاً إلى الحقائق العلمية وهذه الحقائق الكونية لا يمكن أن تكون قد أنشئت عن طريق اللعب والهوى بل بالبناء المحكم وبالحق والميزان وقد رصد القرآن الكريم هذه الفلك إذ قال تعالى **"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ"** [26] .

أما الخطوة الثانية من الدراسات القرآنية فهي تقدم لنا مجموعة من الآيات التي تفيد التبين في الأخبار وعدم تصديقها مباشرة ويمكن أن نطلق على هذا النوع من الآيات ما نسميه بـ(مبدأ التحقق) ، ويمكن أن نستشرف ذلك من قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"** [27].

في هذه الآية منظومة من الأفكار التي تخدم هذا المبدأ ، مبدأ التحقق وهي :

- أن الخطاب في هذه الآية يخص الذين أمنوا ، يعدهم أناس يعقلون الخبر ويفهمونه قبل غيرهم ، ولا يصدقونه فور سماعه وذلك لأن قدرتهم على التحكم بعواطفهم وميولهم الذاتية أقوى من غيرهم .
- التحقق من الأخبار وذلك بالعودة إلى الواقع أو الواقعة التي حصل فيها تشويه للحقائق أو كذب فصرف الخبر عن موضوعيته .
- التمييز بين الأخبار الصحيحة والأخبار غير الصحيحة وذلك بالعودة إلى الواقع الموضوعي ، أي أن الموضوعية في التاريخ لا تتحقق إلا بالعودة إلى الواقع والتحقق من الخبر إذ لا يكون إلا بمطابقته للواقع، فإذا طابقه كان صادقاً وإذا لم يطابقه كان كاذباً .
- التمييز بين العادل والفاسق من ناقلي الأخبار .
- الالتزام بمبدأ التحقق من الأخبار والمصطلح الذي يشير إلى هذا المبدأ القرآني ،هو مصطلح (فتبينوا) أي تثبتوا ، وفي الحديث : "إلا أن التبين من الله والعجلة من الشيطان فتبينوا" فالتبين هنا معناه : التثبت من الأمر والتأني فيه[28]ويمكن أن يكون معنى التثبت هو التحقق من وقوع الحادثة من عدمها ، فالتبين هو التحقق كما يظهر هذا واضحاً من الآية الكريمة .
- الدعوة القرآنية في هذا المقام تفيد الالتزام بالحقائق الموضوعية التي تحدث في الواقع والابتعاد عن الذاتية التي تجر إلى أخطار على الإنسان والعلم ومن ثم إلى الندم .

- فتحت هذه الآية وآيات أخرى ،الآفاق واسعة امام منهج عقلي في منهج البحث التاريخي وهو ما يعرف بالنقد الداخلي والنقد الخارجي ، فالنقد الداخلي هو ما يتعلق بنزاهة الشخص الناقل للخبر أو الرواية ، ومن ثم نشأ ما يعرف بعد ذلك بنظرية الجرح والتعديل ، أما النقد الخارجي وهو ما يخص نقد الوثيقة أو الكتاب .

أما الخطوة الثالثة وهي التي تتعلق بجهود الدارسين والباحثين فإذا بذل الباحث جهوداً صادقة مخلصة وأمينة في البحث، فالنتائج تكون علمية ومفيدة ، أما إذا كانت الجهود متأثرة بالعوامل الذاتية من ميول وعواطف وانتماءات قَبَلَية كما حصل مع الصحابي الذي نزلت بسببه الآية ،وبعد التحقق مما نقل الصحابي تبين أنه لم ينقل الحقيقة،بسبب نزاع سابق حصل بين قبيلته والقبيلة المبعوث إليها من لدن الرسول (ﷺ)فالنتيجة تكون غير علمية وضارة في كل الأحوال .

فالآيات السابقة التي ذكرناها في الخطوة الأولى والثانية والثالثة تدعو الباحثين إلى النظر والتأمل في الظواهر سواء أكانت اجتماعية أم طبيعية أم تاريخية إذ هذه الخطوة تعتمد على الجهد المقدم من لدن الباحثين وغيرها تكون النتائج مفتوحة والآراء والنظريات متعددة وذلك على حسب همم الباحثين.

وعبر التأمل في هذه الأية يمكن تأسيس علم التاريخ في ضوء تأملنا في هذه المعادلة :

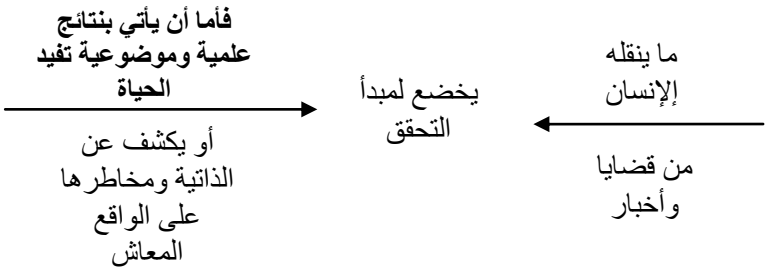

بمعنى أخر أن مبدأ التحقق (التبّين) يلزم تحقيق الموضوعية العلمية والإيمانية معاً . وعدم العمل به يفضي إلى تحقيق الذاتية وانتشار العصبية والجهل بين الناس ومن ثم الندم والتأسف على مثل هذا العمل .

وقد أفرزت هذه الآيات وآيات أخرى أمثال قوله تعالى **"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ□ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ □اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ□ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ□"** [29] ، نشاطاً علمياً وأثرت في حركة التاريخ وتدوينه ، وقد نهضت العقول تسجل ما ترى من مشاهدات علمية وتاريخية وأنبرت الأقلام بطريقة الإسناد تارة وبطريقة النقد والتحقيق تارة أخرى ، وتنوعت البحوث وكثرت الكتب التاريخية في ذلك وسيأتي التعرض لبعضها لأن الاستقصاء من هذا المقام بعيد المنال .

ولا شك في أن هذه الآيات تبرز لنا مجموعة حقائق علمية حضارية وهي :

1. حقيقة القراءة ودورها في نشوء الوعي العلمي والوعي بالتاريخ خاصة.
2. حقيقة الكتابة ودورها في تثبيت الحقائق وعدم الاعتماد على الذاكرة في حفظ الوقائع واعتماد الكتابة في السجلات وتدوين ما يحصل في الكتب، وقد بين البيروني أهمية هذا العامل الحضاري بقوله " من أين لنا العلم بأخبار الأمم لولا خوالد أثار القلم "[30].
3. أهمية العامل الموضوعي في تدوين الأحداث والوقائع وتسجيل الظواهر بكل موضوعية . واستبعاد العامل الذاتي مهما كان صغيراً أو كبيراً ومن أي شخص كان حتى لو كان صحابياً ، والفصل بين الهوى والعدل وعدم الخلط بينهما أو تساويهما، كما قال تعالى : "فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ..." [31] .
4. المنهج النقدي : إذ أكد القرآن أهمية النظر والبصر والفحص والتأمل والتدبر وقد أتخذ المنهج النقدي صوراً وأساليب متعددة وأبرز مظهر نقدي هو ما تبتدئه الآيات السالفة من اساليب استفهامية إنكارية أمثال أفلم ينظروا أولم يسيروا ...الخ وأن أهمال النقد سواء أكان للأفكار أم الأخبار أم الروايات أم الأوضاع الاجتماعية السلبية وتدوينها من دون نقد يخالف المنهج القرآني في الوصول إلى الحقيقة بكل أنواعها .وقد انعكست هذه الخطوات القرآنية بصورة إيجابية لدى كثير من مؤرخي الإسلام ولاسيما أصحاب العقول الكبيرة منهم من بين هؤلاء العلماء أبو الريحان البيروني كما سنرى ذلك بعد قليل .

الذاتية والموضوعية عند البيروني

التاريخ هو أحد العلوم الإنسانية ، التي ازدهرت في العصر الإسلامي ، وبدأ أول الأمر مرتبطاً بالحديث النبوي الشريف ، ثم بالعلوم الإسلامية ثم استقل بوصفه علماً من العلوم ويعني ذلك أن التاريخ بوصفه علماً لم يظهر في بداية الأمر بهذا المصطلح أعني (تاريخاً) إلا ليعني بالروايات والأخبار ،وان المشتغلين به يسمون بالإخباريين وظل ردحاً من الزمن محسوباً على الحديث تارة وعلى الأدب تارة أخرى ثم أضحى فناً من الفنون [32].

وأن لفظة تاريخ لم تستقر على معنى محدد ، فالبعض يرى بأن أصلها عبري كما هو في (يارْيح)التي معناها (القمر) ومن (يرح) ومعناها (الشهر) فيكون معنى (التاريخ) تحديد الشهر والتوقيت ، ومنهم من أرجعها إلى الأصل الأكدي (أرخو) ومنهم من أرجعها إلى الأصل العربي ، مأخوذة من (أرْخ) وأرخ لها تصريفان الأول ارخ ، يأرخ ، أُروخا ، بمعنى حنَّ والثاني أرَخَ ، يأرخُ - أرخا بمعنى بين الوقت ، وأرخ الكتاب بالتشديد حدد تاريخه [33].

ويرجح المستشرق (جب) في كتابه (علم التاريخ) أن لفظة التأريخ لفظة عربية وتعني العهد أو الحساب أو التوقيت ، أي تحديد الوقت وتحديد الشهر ، وأن المناطق العربية الجنوبية اليمنية استعملت لفظة (ورخ) و (توريخ) ومنها جاءت كلمة تاريخ ومؤرخ وياريخ[34] .

وعلى هذا الأساس أطلق العرب لفظة (تاريخ) على كتب تراجم الرجال ، كما في تاريخ البخاري الذي يذكر رواة الحديث فقط ونحو تاريخ الحكماء لأبن القفطي ، وهو كتاب أخبار الحكماء وبعض أهل العلم ، وكذلك ذكر مصطلح طبقات الشعراء والفقهاء والصوفية كل ذلك مما له صلة بالتاريخ فعلم التاريخ نشأ في ضمن علوم الشريعة وعلى أيدي رجال الحديث ورجال السيرة والتراجم والطبقات ، وشيئاً فشيئاً بدأ يستقل عن هذه العلوم ، وظهر من يعتني بالأحداث التاريخية ووقائعها مستقلة عن علوم الشريعة ورجال الحديث ، كما هو الحال في التاريخ الكبير لأبي مخنف 157هـ وتاريخ اليعقوبي ت 292هـ ومروج الذهب للمسعودي ت 346هـ وتاريخ الأنساب وتاريخ الفتوحات وتاريخ الفرق ..الخ ، وفي هذه المرحلة بدأ علم التاريخ يتبلور بوصفه علماً يقوم على المشاهدة والأمانة في نقل الخبر ونقده وتمحيصه للأخبار بشكل عام .

أما البيروني ، فلم ينهج منهج سالفيه مقلداً طريقتهم بل أختط له منهجا يختلف عن هؤلاء في البحث التاريخي قائلاً " ولم أسلك مسالك المتقدمين ولا اتباع أعمالهم على مطايا الترديد على قضايا التقليد"[35]، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن هذا العالم لم يعرف عنه أنه من المؤرخين المسلمين بل من كبارهم ، لأن أكثر مؤلفاته كانت في الفلك والرياضيات والطبيعة أما مؤلفاته في التاريخ فلم تشتهر إلا في حقب زمنية متأخرة ، وهي مؤلفات لها قيمة علمية كبيرة ومن أشهرها : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، وتحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، وهذان الكتابان، يتحدثان عن أهم قضية في البحث التاريخي وهي قضية الذاتية والموضوعية ولعظمة هذا المفكر الإسلامي ، قال فيه المستشرق أرثر بوب أنه " من أبرز العقول المفكرة في جميع العصور "[36].

ومن المعروف والشائع أن مشكلة الذاتية والموضوعية في البحوث التاريخية ، كانت شائعة وطاغية على غالبية المؤلفات في القرون الوسطى إلا ما ندر ، فالتعصب العرقي أو القومي أو القبلي أو السياسي أو جميعها كانت تمثل مادة كبيرة في كتابة تاريخ العصور الوسطى لاسيما الأوربية منها ، ولما حل عصر النهضة وظهر فرنسيس بيكون بنظرية الأصنام الأربعة وهي نظرية تبين خطر العادات والتقاليد والذاتية على البحوث التي حواها كتابه "الأركانون الجديد" أي الآلة الجديد في البحث بدلاً عن الآلة القديمة أي المنطق الأرسطي ، وضع بيكون من هذا الكتاب حداً للميول والأوهام والأحكام الشخصية وعدَّ كل هذه عقبات من شأنها أن تعرقل البحث العلمي ، وقد لخص بيكون هذه العقبات وأطلق عليها عنواناً يعرف بالأوهام الأربعة وهي وهم الجنس ووهم الكهف وهم السوق وهم المسرح[37] .

ولو دققنا النظر في هذه الأوهام لوجدناها ليست سوى الأحكام الذاتية التي يصدرها الشخص على الظواهر والأشياء والوقائع وهي إما فردية أو جماعية فهي تضر بالبحث العلمي ، أما الواقع والظواهر والوقائع فلم يكن لها من العناية الكافية .. فانتبه العقل الأوربي بعدئذ وتأثر بنظرية فرنسيس بيكون جميع الباحثين فتطورت البحوث العلمية ولاسيما البحوث الطبيعية وجاءت بنتائج ذات قيمة ، استناداً إلى تأكيد المشاهدة العلمية واعتمادها في البحث العلمي من دون الاعتماد على ما قيل ويقال ، فسارع أوجست كونت إلى تبني منهج البحوث الطبيعية في البحث الاجتماعي وقد تأثر بهذا المنهج أيضاً مجموعة من المؤرخين على رأسهم (بيري) الذي قال (إن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل)[38] .

ومن ذلك التاريخ أي منذ قرن من الزمان ، بدأت الدراسات من العلوم الإنسانية تتقدم تقدماً كبيراً لتلحق بركب العلوم الطبيعية ، ومن بين هذه العلوم هو علم التاريخ .

ولكن المشكلة في البحوث التاريخية ليست كالمشكلة في العلوم الطبيعية ، المشكلة في البحوث التاريخية تكمن صعوبة التحكم بذات المؤرخ الذي تتحكم به عوامل ذاتية وخاصة كالعامل القومي والعقيدي والعوامل الاجتماعية وما إلى ذلك ، فهو لا يكتب الوقائع التاريخية بموضوعية تقترب من موضوعية الباحث في العلوم الطبيعية ، ولو ألتزم المؤرخ بالشروط التي يلتزم بها العالم الطبيعي لكان التاريخ علماً كبقية العلوم ولم يكن التاريخ علماً إلا إذا توخى على جانبين :

1-الابتعاد عن الذاتية .

2-الاهتمام بالموضوعية .

هذان الجانبان هما أساسيان في كل علم من العلوم ، ومنها علم التاريخ ، فإذا استطاع المؤرخ الانتباه على هذين الجانبين تنبهنا إلى الأسباب التي تجعل التاريخ علماً من العلوم .

فالابتعاد عن الذاتية التي ذكرنا معناها من قبل من ناحية ضبط ذاتية المؤرخ في الصدق والأمانة وعدم التعصب لشخص أو قبيلة أو مذهب أو حزب ، مما يدخله في دائرة الموضوعية وإذا أمتلك حاسة النقد ، تأهل المؤرخ لأن يكون عالماً [39].

ولكن هل يستطيع المؤرخ أن يتخلى عن ذاتيته أو مكوناته الذاتية وعواطفه وأماله ورغباته وبيئته وقبيلته أو معتقده حينما يريد أن يصف واقعة ويكتب تاريخاً لها ؟ فإن كان بالإمكان ذلك ، فأن التاريخ سيتحرر من أخطر تهمة توجه إليه وهو كون التاريخ فناً من الفنون أو أنه محسوب على الأدب ، وقد تنبه (مارو) إلى ذلك وقرر : أن المؤرخ يمكن أن يتخلى عن الأحكام الذاتية أو أنه ليس رهين ذاتيته [40] .

إلى ذلك (رانكة من لدن (مارو) إذ عد أول المؤرخين الذين أخذوا بالبحوث التاريخية ومناهجها نحو الموضوعية والابتعاد عن الذاتية ، وذلك بفضل دعوته إلى محو الذات من الكتابات التاريخية ، حتى يجعل صوت الأحداث التاريخية وحدها مسموعاً [41].

واستمرت هذه الدعوات من لدن أكثر المؤرخين ومدارسهم في القرن التاسع عشر والعشرين رواجاً ، محاولين إقصاء الذاتية وعناصرها السلبية من البحوث التاريخية ، مؤكدين ضرورة إزالة العامل الذاتي بمختلف أشكاله وألوانه من البحث التاريخية

.وقد تحدث (وولش) عن ذلك فقال : (إنّ انواعاً مختلفة من العوامل الذاتية ، كالتعصب ، والتحامل ...الخ تستطيع اقتحام التفكير التاريخي ، وأن بعض العوامل مشكلة أشد خطر من بقية المشكلات على منهج البحث التاريخي)[42] .

فمشكلة الذاتية وخطرها على البحوث التاريخية بل خطرها على كل العلوم شيء يقره كثير من العلماء الغربيين المعاصرين ، أما قبل ذلك فقد كانت البحوث العلمية ومن ضمنها البحوث التاريخية كما يقول هؤلاء العلماء مشبعة بالذاتية ، وأن هذين المصطلحين مصطلح الذاتية والموضوعية في التاريخ يشار إليهما على أنها من جهود العلماء الغربيين، وهذا صحيح كما رأينا قبل قليل ، إلا أن النظرية قد تطرق إليها قرائنا ، والذي أشار إلى هذه المشكلة بكل وضوح وطبقها مؤرخنا الإسلامي البيروني – كما سنرى- إذ شخص مشكلتي الذاتية والموضوعية في البحث التاريخي تشخيصاً لا يقل عن تشخيص العلماء الغربيين، إن لم نقل إنه كان أكثر أصالة وعمقاً وسبقاً ، وبذلك نكون قد عالجنا موضوعاً من أهم مواضوعات العلوم الإنسانية التي أختطت سبيلاً علمياً في منهجية البحث التاريخي قبل الغربيين وسوف نرى ذلك من خلال ما يلي :

أولاً /الذاتية :

يرى البيروني أن مشكلة الذاتية تأتي وتحدد بالمخبرين الرواة أي المؤرخين وهؤلاء هم الذين ينقلون الأخبار وأن هؤلاء تتفاوت هممهم وتتباين عقلياتهم فيقول (إن الخبر عن الشيء الممكن الوجود في العادة الجارية ، يقابل الصدق والكذب ، على صورة واحدة ، وكلاهما لا حقان به من جهة المخبرين ، لتفاوت ألهمم وغلبة الهراش والنزاع على الأمم [43].

ويمكن أن نحلل هذا النص لنقف على مشكلة الذاتية التي تظهر عند المؤرخين ويعد البيروني المخبرين هم الذين يضيفون من عندهم على الخبر أو ينقصون ، فالخبر عن واقعة تاريخية معينة يمكن أن يتحقق منه فيوصف بالصدق أو الكذب ، إلا أن المؤرخين هم الذين يضيفون من عندهم على حسب أهوائهم وذواتهم والاسباب في ذلك كثيرة ومعروفة وهي :

1-التفاوت العلمي بين همم المؤرخين فالنص يظهر أن الواقعة أو الحدث التاريخي ، لا يختلف عليه أثنان من ناحية وجوده الحسي وواقعه الموضوعي ، أما الذي يحدث ويحصل وهو وضع المؤرخ (المخبر) وحكمه ، فالوضع والحكم تابعان إلى ذات المؤرخ ، وهذه الذات هي التي تخضع لعدة أعتبارات وعوامل نفسية واجتماعية وسياسية ..الخ بالإضافة إلى التفاوت العلمي بين همم المؤرخين من هذه الناحية يرى البيروني أن أمر التفاوت مقبول ومعقول ، لأن وعي المؤرخين وتحصيلهم العلمي ليس على درجة واحدة أو متساوية بل هممهم مختلفة ومتفاوتة ، وهذا أمر إيجابي أما الأمر السلبي فهو في الجانب الذاتي للمؤرخ المتمثل بالطمع والتنافس والنزاعات الشخصية والميول إلى هذا الموقف أو ذاك بغير حق .

2-الحكم بالصدق أو الكذب لواقعة أو حدث تاريخي من لدن المؤرخ وهذا الحكم يتأثر بالعوامل النفسية والبيئية والاجتماعية قوة أوضعفاً ، فحكم المؤرخ ووصفه ، هو الذي يقيم ويكون تقييمه موضوعياً إذا لم يتأثر بالعوامل الذاتية كالشعور بالعظمة أو القوة أو الغلبة .

3-ومن العوامل الذاتية التي تنحرف بالمؤرخ أيضاً تأثره بالنزاع والصراع الدائر بين الأمم لضم هذه الدولة إلى تلك وتلك إلى هذه لتحقيق حسابات تتعلق بميزان القوى ،ومثل هذه الحسابات هي التي تدخل في ضمن إطار الذاتية كالانتماء القومي أو العرقي أو العنصري أو إلى أي سبب أخر على إن مثل هذه العوامل تخرج البحث عن الموضوعية وتدخل في موضوع العوامل الذاتية .

وحينما يكتب التاريخ بهذا الشكل وتدون أحداثه بهذه الصورة يصبح التاريخ سياسيا وليس علمياً ، وعندئذ لا بد من التمييز بين المعرفة التاريخية والسياسة التاريخية ، فالأولى هدف عالم التاريخ الحقيقي والموضوعي والثانية هدف المؤرخ غير الموضوعي، وهو الذي يكتب تاريخاً مزيفاً .وقد كشف البيروني عن العوامل الذاتية وأثرها في البحوث التاريخية وانتقد المؤرخين قائلا "كانوا يحيدون عن الطريقة ويعبرون عن نفوس تتضح فيها آفة التعصب ووصمة الأضرار والتغلب"[44] فالحياد عن الطريق والتعبير عن الذات بصور سلبية وأفة التعصب كل هذه تميز البحوث التاريخية في زمن البيروني وقبل زمنه وربما بعد زمنه أيضاً ، لأن الإصرار على هذا ا المنهج الذاتي قد بان واتضح أثره السلبي ويقول البيروني أيضاً " فما وجدت من أصحاب الكتب والمقالات أحدا قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مداهنة" [45]،فالذاتية هي السائدة في كتابة البحوث والموضوعية هي الغائبة ولأجل ذلك نبه البيروني في وقت مبكر على هذا الخطر وصنف المؤرخين وناقلي الأخبار ستة أصناف، خمسة منهم يمثلون الجانب الذاتي السلبي في استمرار هذه المشكلة ، وصنف واحد، هو الذي يمثل الجانب الإيجابي من المعرفة التاريخية ، وهذا التصنيف هو الذي يجعلنا نميز بين نوعين من الذاتية عنده وهما :

أولاً / الذاتية السلبية .

ثانياً/ الذاتية الإيجابية .

الذاتية السلبية : نظر البيروني في كثير من كتب التاريخ فوجد هذه الكتب مليئة بالمواقف الذاتية وكثرة الأباطيل والأخبار المشكوك فيها ، وإذا كان بعضها يمكن نقده وتصحيحه فبعضها الآخر يتمثل بأتجاهات ولا بأخبار ، ومن هذه الاتجاهات أو المواقف التي عدها البيروني خمسة وهي :

1- ذاتية داء العظمة : يرى البيروني أن هذا النوع من المؤرخين يخبرون عن أمر كذب ليس له حقيقة ، ولكنهم يقصدون من وراء ذلك تعظيم نفوسهم ومن ثم تعظيم أبناء جنسهم ،فيقول عن هذا الضرب من المؤرخين : "فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه ... ومعلوم أن هذا من دواعي الشهوة والغضب المذمومين "[46].

وقد يختلف بعض المؤرخينواقعة كاذبة ليس لها وجود حقيقي ويعدُّها ذات وجود حقيقي فهم ينسجون واقعة خياليه بطريقة الكذب ، فيعظمون من شأن ذواتهم ويقصدونه بها أقومه وهذا التعظيم له أسباب نفسية خاصة بمن يدعي ، ودعواه هذه متأتية من أنه يشتهي مثل هذا التعظيم لا لشيء إلا لأرضاء شهوته في العظمة التي يرافقها الغضب لأدنى شيء وربما كان ذلك مشغوفاً بأعلان

الحروب وهذه طريقة مذمومة كما يصفها البيروني وسلبية على البحث التاريخي ، لأن من شأنها أن البحث يفسد عبر فساد المؤرخ نفسه وهذا النوع من الكتابة يعرف أليوم بالكتابة الشوفينية والنزعة العنصرية .

2-ذاتية الحب والبغض : يرى البيروني في هذا النوع من المؤرخين ، أنهم مؤرخون يختلقون الوقائع الكاذبة وهم أشبه بالمؤرخين السابقين الذين يرون ذواتهم شيئاً عظيماً ، فيقول "ومن مخبر عن كذب في طبعه من يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر ، وهو مقارب للأول ، فأن الباعث على فعله دواعي المحبة والغلبة "[47].

وقد يذهب البعض من المؤرخين الواقع الخارجي ، فيخبر عن واقع آخر ينطلق منه وهذا الواقع هو واقع داخلي يتعلق بالمحبة والبغض ، أي أن بعض المؤرخين ينطلق في كتاباته من رؤية ذاتية لا علاقة لها بالواقع فيعظمون ضعيفاً ويحتقرون قوياً أو بالعكس أو يزيدون أو ينقصون بمقتضى ما تمليه عليهم عوامل المحبة أو الكره وهذا العاملان ، عاملان ذاتيان لا يصلح كتابة التاريخ بهما وإذا كتب التاريخ بمثل هذا المعيار الذاتي ، أصبح مزيفاً وفقد معيار الموضوعية .

3- الذاتية الجبرية : الجبرية هو من الجبر وهو أسناد فعل العبد إلى الله تعالى ، وهو مذهب من المذاهب الإسلامية كالجهمية ، ويقترب هذا المصطلح من مصطلح الحتمية إلا إن هناك قوانين حتمية يخضع لها الإنسان ولا يستطيع أن يتخلص منها وهذه القوانين من الله تعالى كقانون الحياة أو الموت والقوانين الفيزياوية ...الخ، وهناك نوع من الحتمية المادية التي جاء بها ماركس وهي ترجع هذه القوانين إلى الطبيعة لا إلى الله وقد فسرت المادية الفعل الإنساني بأنه فعل حتمي من خلال دراسات ولا نريد هنا مناقشة هذا النوع من الحتمية ويمكن الرجوع إلى كتاب فلسفتنا للشهيد محمد باقر الصدر(قدس سره) ،والذي يعنينا إشارة البيروني إلى الكتابات الحتمية في التاريخ كما في قوله : "ومن مخبر عنه – أي التاريخ – طباعاً ، كأنه محمول عليه ، غير متمكن من غيره ، وذلك من دواعي الشراهة وخبث مخابئ الطبيعة "[48] النص يشير إلى أن بعض المؤرخين أسير لطباع ذاتية سلبية منها الشراهة وخبث مخابئ الطبيعة .

وهذه بلا أدنى شك نظرية أقرب ما تكون إلى الإشارة إلى حتميات نفسية أو سياسية أو اقتصادية استحوذت على عقلية الكثير من المؤرخين فهم لايستطيعون التخلص منها ، بل أنهم يشعرون بأنهم ملك لهذه الطباع أو الحتميات وانهم جزء لا يتجزأ منها فيقعون تحت تأثير الإيديولوجيات والنظريات النفسية والعوامل الاقتصادية والجغرافية والعنصرية ، فتتأثر بحوثهم التاريخية بتلك النظريات هي نظريات سلبية على التاريخ ،ليس لها طابع حتمي علمي كما يدعون ولا طابع نفسي بل يمكن التخلص منها ، بدليل أن المعتقدات الحتمية ومنها المادية التاريخية وغيرها أثبتت ضعفها في تفسير التاريخ ، وصار كثير من المؤرخين يتوجهون توجهاً علمياً حيادياً بعيداً عن هذه الحتميات ، سواء أكانت هذه الحتميات من دواعي سلبية كالشراهة وهي عامل نفسي داخلي أم طبيعي أم ما يتصوره بعضهم من المؤرخين من أنه من العوامل الخارجية كالتصورات الخاصة بالصراع الطبقي الذي يفرض على الإنسان قوانين حتمية معينة ثم يعكسها الإنسان على سلوكه إن خطورة مثل هذه التصورات وسلبياتها على التاريخ دعت البيروني إلى التنبيه عليها فهذا النوع من المؤرخين يختلق روايات كاذبة ليس لها واقع حقيقي ، لطبقة أو جماعة أو شعب يحبه فيعظمه ، كما هو الحال في تعظيم شعب من الشعوب على أنه أسمى من بقية الشعوب الأخرى.فيعظم من ذلك الشعب ويجعله فوق بقية الشعوب وبقية الشعوب دونه ، ويبدأ بنسج الروايات التي توافق هذا النوع من الاتجاه الشوفيني ، لا لشيء سوى أنه يحب هذا الشعب ويكره شعب أخر ولا شك أن صفة، الحب أو الكره هما صفتان ذاتيتان ، أو عاملان سلبيان ولا عاملان إيجابيان في البحث العلمي ومخالفان للبحث التاريخي الموضوعي ، و أن داء العظمة والنزعة العنصرية ولاسيما إذا كانت قومية أو عنصرية عرقية ، فأنهما تخرجان المؤرخ من دائرة كونه .

فالبيروني يشخص أحد أخطر أنواع الذاتية ومشكلتها في البحث التاريخي ويرجع أسباب هذا النوع من المشاكل الذاتية إلى دواعي الحب والقوة ، وأن مثل هذه الأساليب لا تجعل التاريخ علماً ، لأن المحرك نحو الكتابة التاريخية هي عوامل ذاتية يعتقد بها المؤرخ مثل الحب والقوة ومن ثم يكون مجافياً للحقيقة.

ومثل هذا الضرب من المؤرخين يكون خادعاً وكاذباً ويحمل عاطفة تقلب الحقائق وتجعل من الشعوب يعيشون أوهام العظمة والعنصرية في حين أنهم شعوب لا يختلفون عن غيرهم إذا ما أرادوا التقدم على وفق قوانين التقدم الحقيقية التي تبينها إرادة الحق والعلم ، وخير مثال على الذات الشوفينية العنصرية التي يمثلها دعاة تعظيم الأشخاص من رؤساء العالم أمثال هتلر وموسوليني وغيرهما قديماً وحديثاً ويميز البيروني أسباب هذا النوع من ذاتية المؤرخين عن النوع الأول فيجعلها الشهوة والغضب والثاني تتمثل أسبابه بالحب والكره فضلاً عن عامل القوة ، وكل هذه العوامل هي من أخطر عوامل الانحراف بالموضوعية وإعلاء من شأن الذاتية وهذان النوعان كثيراً ما كتبت عنهما كتب التاريخ وزورت بهما وقائعه وما زالت للأسف الشديد هي العوامل الأكثر قوة في كتابة التاريخ الإسلامي ، على الرغم من أن الآيات القرآنية كما رأينا تدعوا إلى أن تكون الكتابة أمانة في أعناق الكاتبين والمؤرخين وأن تكون بعيدة كل البعد عن الهوى بكل ألوانه .

4- الذاتية النفعية الخاصة (البرغمايته) : وهي نوع من الصفات السلبية لبعض المؤرخين الذين يقرؤون التاريخ حسب المواقف الذاتية والمصالح الخاصة من جهة وضعفهم النفسي من جهة أخرى و الذي يتمثل بالخوف فلا يقرر حقيقة ما يرى ويكتب، بل يرى أن المواقف هي التي تملي عليه نوع الكتابة لا المبادئ ، وهذه المواقف قد تكون متمثلة بسلطة قوية ، يخشى المؤرخ سطوتها وبطشها أو قد تكون سلطة للخير فيعمد إلى التزلف إليها أيضاً أو موقف مغري بالمال أو غيره يقول البيروني "ومن مخبر عنه – أي التاريخ- بالخير أو بدناءة الطبع أو متقياً لشر من فشل أو فزع"[49] فبعض المؤرخين يكتب التاريخ بمقتضى بعض المواقف والمصالح السياسية أو الأجتماعية ، فهو يكتب متقرباً لخير ويحصل على مكاسب مادية أو متقي لشر وهو في كل الأحوال لا يكتب بموضوعيته بل بدناءة الطبع وذات سلبية خائفة أو فاشلة ضعيفة أمام الحق والحقيقة.

5- الذات الجاهلة :وهذا النوع يقصد به عدم معرفة ذات المؤرخ بالعلوم التي ينبغي أن يتعلمها أو يعرفها بغية تنمية المعرفة التاريخية وتطويرها ، يقول البيروني (ومن مخبر عنه – التاريخ- جهلاً ، وهو المقلد للمخبرين وأن كثروا أو تواتروا فرقة بعد فرقة ، فهو وهم وسائط فيما بين السامع وبين المعتمد الأول[50] ويكرر هذا المعنى في كتابه مرة اخرى [51].

فهذا النوع من المؤرخين لا يؤرخ عن علم وإنما عن جهل فهو لا يمتلك معرفة علمية ولا قواعد تحكم وتميز بين الخبر الصحيح والخبر غير الصحيح، وإذا كان الأمر كذلك فيعني أن الجهل هو الذي يسيطر على عقلية هذا النوع من المؤرخين وإذا سيطر الجهل على مؤرخ فلا يجعله يميز بين ماهو صحيح وما هو غير صحيح من الأخبار ومن ثم فلا نقد ولا تحليل وإذا كان الجهل هو المسيطر على عقلية هؤلاء المؤرخين وليس العلم فسوف يكون التقليد الأعمى ونقل الأخبار وتوارثها وكتابتها نقلاً سلبياً، لأن الجهل ضد العلم وما كان ضد العلم يترتب عليه إن كل ما يسوقه يكون سلبياً على مستوى أي معرفة من المعارف وخاصة المعرفة التاريخية .

وأمثال هؤلاء المؤرخين الجهال ، أن صح أن نطلق عليهم مصطلح المؤرخين ، فهم مخبرون بمصطلح البيروني وليسوا مؤرخين للحقيقة لأن المؤرخ للحقيقة هو الذي يمتلك أدوات معرفية تجعله يميز بين الحقيقة التاريخية والمعرفة غير التاريخية ويميز بين الحقيقة والوهم ، أما هؤلاء المخبرون مقلدون والمقلدون ليسوا مبدعين وأن كثروا جماعة بعد جماعة كما يقول البيروني ، فلا أثر إيجابي لهم من كثرتهم ولا في منهجيتهم السلبية لأنهم جهلة لا يعون ولا يميزون الصحيح من الخطأ ، فهم وإن كثروا جملة وتواتروا في أخابرهم ليسوا موضوعيين على مستوى الكتابة التاريخية والنقل التاريخي بل على مستوى التواتر، لأنهم فاقدون لشرط الموضوعية وهو العلم بما يكتبونه وما ينقلونه وما يتواتروا عليه فما دامو أنهم وسائط في النقل بين الأول والأخر، وهذه الوسطية مادامت ليست وسطية نقدية بل هي وسطية سمعية ونقلية ، سوف يتخلل هذا الطبع ويرافقه كثير من السلبيات التي تتعارض مع المعرفة الموضوعية في التاريخ ،و هذا ما لا يقره البيروني في منهجيته التاريخية التي تبنى على المعرفة العلمية من خلال المشاهدة الحسية – كما سنرى – هذه الأنواع الخمسة من الذات السلبية حددها البيروني بكل دقة وأرجع أسبابها إلى المخبرين أو إلى نفسية المؤرخين بكل نوازعها السلبية من ميول وشهوات ومصالح ...الخ كل هذه النوازع إذا سيطرت على المؤرخ فإنها تحول بينه وبين معرفة الحقائق التاريخية وتحديد الوقائع ووصفها ومن ثم يحصل التحريف والتزييف وعدم القدرة على كتابة تاريخ علمي للأحداث والوقائع لأن الهدف ذاتي ولا موضوعي .

ثانياً / الذات الإيجابية :

هي ذاتية ذلك المؤرخ الذي بنى نفسيته على العلم والصدق والأمانة والموضوعية ، وهذا البناء هو الذي يرفع من مستوى هذه الشخصية إلى مستوى علمي بينما الذات السلبية ليست مبنية على علم ولا معرفة ولا صدق ولا أمانة بل مبنية على الشهوات والميول والرغبات والغضب وحب السيطرة والعوامل الجبرية كما بينا.

أما المؤرخ الإيجابي صاحب الذات الإيجابية يقول عنه البيروني(إنه أحد ممن عددناهم من المتخرصين والمجانب للكذب المتمسك بالصدق ، وهو محمود ممدوح عند الكاذب فضلاً عن غيره)[52] فالبيروني ميز بين الأنواع الخمسة من الذوات السلبية التي عددها والذات الإيجابية التي لا تقول إلا حقاً ولا تصف إلا صدقاً ولا تماري ولا تميل مع الأهواء والمحن والرغبات كما هو الحال مع أصحاب الذوات السلبية ممن ذكرناهم ، بل أن الذات الإيجابية هي ذات موثوقة ومقبولة ومحمودة وممدوحة عند جميع الأطراف حتى عند الكاذب فضلاً على غيره من الصادقين .

ويثني البيروني على هذا النوع من المؤرخين فيقول "فقد قيل قولوا الحق ولو على أنفسكم"[53] فقول الحق في كل شيء حتى ولو خالف هوى النفس أو خالف الجماعة أمر إيجابي في التاريخ وكتابته لأنه يعزز إرادة الحق على إرادة الهوى بناقل الخبر أو أهواءكم لأن قول الحق هو ما يطابق الحقيقة التي ينبغي أن لا تعارض الحقيقة بل تعارض الهوى. وفي قول البيروني دلالة قوية على التزام الموضوعية والبعد عن الذاتية وهي دلالة قوية على التمييز بين الذات السلبية والذات الإيجابية فالمؤرخ السلبي لا يمكن أن يكون هو المؤرخ الأيجابي و أن المؤرخ الحق ليس باطلاً ، ويعمق البيروني هذا المعنى ليصل به إلى أن المؤرخ ينبغي أن لا يقول الحق فقط ويصفه بموضوعية بل أن يقوله ولو عارض أهواءه ونزواته ونوازعه التي غالباً ما تخفي الحقائق إذا ما تعلق الأمر بالحق وزيادة في نكران البيروني للذاتية وإيمانه بالحق والموضوعية يذكرنا البيروني بقول المسيح عليه السلام في الأنجيل من أهمية "الأفصاح عن الحق" [54].

فالإفصاح عن الحق وعدم كتمانه من الموضوعية لأن كتمان الحق يعني غياب الحقيقة وعدم معرفتها ومن ثم يحل محلها الجهل وتحوم حولها الظنون وتصبح هي الطريقة الشائعة التي تكتب وتدون عبرها المدونات التاريخية والقول الذي ذكره البيروني يتعلق بشهادة الحق وأهميته مستقى من سورة النساء كما في قوله تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ"** [55] .وهذا هو معيار من معايير البحث العلمي في كل العلوم لا سيما في التاريخ وقد ذكره القرآن وتأثر به البيروني وعمل به وأسس منهجية البحث العلمي ضوئه وإذ جعل هذه الآية المباركة مفتاحاً للمفاهيم التي سلف ذكرها آنفاً وسنعرض في الصفحات الآتية من البحث إلى المزيد من الآيات مما يدور في هذا الفلك .

ويتوضح هذا المعيار بمستويين وهما :

1.القوامة .
2.الشهادة بالحق .
3.القسط .
4.الله تعالى .
5.النفس .

فالقوامة هي أكثر من المراقبة ، هي مراقبة مع اهتمام بالشيء ومراعاته [56]،خشية الميل أو الانحراف ، والقسط هو العدل ، والعدل يستعمل فيما يدرك بالبصيرة [57].

فالظاهرة الاجتماعية أو ظاهرة [58]الكتابة التاريخية تحتاج إلى بصر وبصيرة ، بصر يشاهد الظاهرة ويراقب ويهتم ، وإلى بصيرة ووعي يراقب أي انحراف أو ميل أو تزوير ثم تأتي الشهادة بالحق ، وهي في أحد معانيها الاعتقاد بالشيء المطابق لما يكون عليه ذلك الشيء في نفسه[59]،بمعنى أن الشهادة بالحق لا بد من أن تكون مطابقة معنوية أو مادية ولا يجوز في كلا الأمرين أن تكون متفقه مع شهادة الباطل ، فالحق نقيض الباطل ، والرقيب في كل ذلك هو الله تعالى ، والشهادة ينبغي أن تكون حقاً ولو على نفس الإنسان ، بمعنى إن الإنسان المسلم لا يمكن أن يكتم شهادة حق أو يقول كذباً أو يكتب خلاف الحق ، لأن الله عليه رقيب ، وهذه المعاني إذا ما استحضرها الكاتب أو الباحث الإسلامي كان مؤرخاً أو عالماً في التاريخ ،وهي تجعله عالماً بحق.

فمعيار صدق المؤرخ ومعيار إيجابيته هو أن يلتزم بالصدق والشهادة الصادقة والقوامة في الحكم أيضاً في كل ما يقول ويكتب ويصف ولا يبالي ولا يجامل ولا يحيد عن الحقيقة ولو على نفسه ، وهذا هو الجانب الموضوعي عند البيروني وهو الذي قاده إلى التحلي بالموضوعية في الكتابات التاريخية التي كتبها وشهد له بها كثير من الباحثين.

ثانياً :الموضوعية : تتميز موضوعية البيروني بمرحلتين مرحلة النقد ومرحلة الاعتماد على المشاهدة

1.مرحلة النقد : رأى البيروني أن الفكر التاريخي يتضمن كثير من الأهواء والبدع والخرافات والأساطير ، وليس من سبيل إلى معرفة الحقيقة التاريخية في خضم هذا الكم من الأباطيل والخرافات غير ممارسة النقد ، قال "على أن الأصل الذي أصلته والطريق الذي مهدته ، ليس تقريب المأخذ، بل كأنه من بعده وصعوبته ، يشبه أن يكون غير موصول إليه ، لكثرة الأباطيل التي تدخل جمل الأخبار والأحاديث وليست كلها داخلة في حد الأمتناع فتتميز وتهذب" [60] . ففي هذا النص يعلن البيروني صراحة بأن الأخبار ليست كلها صحيحة وداخلة في حد الصحة والامتناع من الخطأ بل فيها من عدم الصحة كثير والطريق إلى تحري ذلك النقد وأول عمليات النقد هو عدم التسليم بصحة جميع الأخبار ، على أن النقد وحده غير كاف إذا لم تهذب الأخبار وتصحح ، في نظر البيروني وبذلك يبدأ طريقاً مكملاً لمرحلة النقد وهي طريقة التصحيح للوثائق فيقول " من الواجب علينا أن نأخذ الأقرب من الأخبار فالأقرب والأشهر فالأشهر ونقايس بينهما "[61] .في هذا النص يؤكد البيروني وجوب النزعة النقدية في التاريخ وأن الطريقة إليها بالإضافة التي التمييز والتهذيب تسجيل الأقرب من الأخبار فالأقرب زمنياً والأشهر فالأشهر بين الناس والعلماء وأن نبدأ عمل الموازنة والمقايسة بين هذه الأخبار فما كان قريباً منا لأن البعد الزمني يمثل ما نعاً من التحقق بين الصدق وعدم صدق الواقعة وما كان الأكثر شهرة بين الناس ومتعارفاً عليه كان حقيقة ويمكن عده معرفة تاريخية وإذا أخذت الأخبار من دون نقد ولا موازنة لا يمكن عدها معرفة وسوف تحيط بها الشكوك وتكتفها الأوهام في صحة وقوع الحدث التاريخي فالنقد والتمييز العقلي وتنقية الأخبار والموازنة والأخذ بعامل الزمن القريب من وقوع الحدث التاريخي وما أشتهر بين الناس لا ما يخبر به فرد واحد كل هذه عوامل جديدة دخلت في تقييم المعرفة التاريخية غير تلك العوامل السابقة على البيروني .

ويبدأ البيروني ممارسة النزعة النقدية في التاريخ ويتحدث عما يتعلق بمبدأ الخلق فيقول أن "كل ما يتعلق معرفته ببدء وأحوال القرون السالفة فهو مختلط بتزويرات وأساطير لبعد العهد به....الخ" [62] . فالأخبار التي تتحدث عن بدأ الخلق وأحوال القرون الماضية تختلط الحقائق التاريخية بالأساطير والتزوير وهذا الاختلاط في نظر البيروني له أسباب كثيرة وهي :

1) بعد العهد وامتداد الزمان ببدأ الخلق .

2) وعجز الإنسان عن حفظ مثل هذا التاريخ البعيد وضبطه ، لا سيما وأن أمر التدوين التاريخي لم يكن شائعاً في تلك القرون .

وينبه البيروني إلى أن مشكلة الحفظ والضبط التاريخي للأخبار والروايات لم تكن عسيرة على المؤرخين القدامى فحسب وبل يرى البيروني أن مثل هذا الحفظ والضبط كان عسيراً ومشوشاً وغير واضح لدى أصحاب المذاهب والفرق ، فكثرة البدع والأهواء أدت إلى "كثرة التواريخ وفتنانها ليس بين فرقة واحدة فضلاً عن الفرق "[63].

فالبيروني يحدد مشكلة التدوين التاريخي في الافتنان بمن يحب من المذاهب والفرق ، أي الميل إلى من يحب فيكتب ما يحلو له لا بما تتطلب الحقيقة التاريخية وهكذا اتسعت رقعة هذه المشكلة وانحرفت الحقيقة وتعددت وجوهها وأصبح كل "يرعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا ، يقول البيروني "وكل واحد من الفريقين إلا مدعٍ في دعاوى لا يستشهد على صحتها إلا بتأويلات مستنبطة من حساب الجمل ركيكة لو قصد المتأمل لها أثبات غيرها ونفى ما أورده بأمثالها لم يصعب عليه مراميها "[64] .

فصحة الأخبار والروايات في التاريخ القديم لم يحكمها منطق علمي بل منطق الحب والهوى والميل والدعاوى لهذه الفرقة وذلك المذهب ، ولكن لو قصدت النقد والتمحيص والتأمل العقلي لهذه الفرقة أو ذلك المذهب وميزت بالإثبات والنفي العقلي ما صعب عليك الأمر لمعرفة أسباب هذا التزوير وكثرة الأساطير .ثم يبين البيروني أن عاملاً خطيراً أخر أدى إلى اختلاط الحقائق التاريخية بالأساطير والخرافات وزاد مشكلة المعرفة التاريخية تعقيداً ذلك العامل الجهل ، فجهل الناس بالتاريخ وعدم وعيهم به جعلهم يهتمون بالثقافة الجزئية واليسيرة التي يغلب عليها الطابع الشفاهي والأسطوري والخرافي في مجمل نشاطاتهم المعرفية والتاريخية ، لذلك يرى البيروني أن احتمالات وجود وعي تاريخي لدى العوام والجهلة أمر غير ممكن ولهذا يرى ، أن قلوبهم مع الخرافات أميل .... [65] .

وهذه حقيقة ملموسة لدى كل مجتمع لا يمتلك وعياً تاريخيا ولا ثقافة علمية تمكنه من الخروج على ما هو مألوف ومتناقل من الأخبار والروايات غير الصحيحة التي تشكل عقبات في التفكير العلمي ، وهذه صفات المجتمعات الجاهلة ، إذ تقتصر معرفتها التاريخية على ما تلوكها ألسنتهم وعلى جزيئات من المعرفة اليومية ويصبح تكرار هذه الجزيئات وترديدها هو المجال الوحيد من معرفة التاريخ عند ذاك أن أبرز ما تتصف به هذه المجتمعات من خصائص هو التهور واللجاج لا التفكير السليم وإنما هو التهور واللجاج ، وقد ألزم البيروني ممارسة النقد ومنهجيته أمام هذه المعرفة فقال " من الواجب على كل إنسان أن يعمل من صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة وتصحيح خلل أن عثر عليه بلا حشمة" [66].

فهذا النص يشير إلى منهج نقدي واضح يتمثل بما هو آت:

1. إلزام أي باحث من أي علم بالاجتهاد أمام الكم الهائل من أخبار التاريخ كل أنواع التاريخ سواء التاريخ العلمي أم تاريخ الفرق ، أم التاريخ السياسي ...الخ .
2. تصحيح الأخطاء التي يقف عليها من أثناء قراءته للتاريخ وعدم التسليم بها أو تركها من دون تصحيح .
3. أن يمارس النقد فيها بلا خوف ولا حشمة من أي جهة كانت وهذه نزعة نقدية يحرص البيروني على إيجادها وإظهارها و التجرؤ على نشرها بغية إظهار الحق والعمل به وموت الجهل ودفنه فالتسليم أو التقليد للسابقين ونقل أخبارهم كما هي من دون نقد وتمحيص ولا تحليل ولا تصحيح يعني عدم نمو المعرفة التاريخية وجمودها.

فالتاريخ هو كل ما يرثه الإنسان من الماضين في شتى المجالات والميادين الفكرية والثقافية ولكن ليس كل ما هو موروث تاريخي مقطوعاً بصحته بل هو يحتاج إلى فرز وتحليل ونقد ، وفي هذا يقول البيروني "ولا يليق بطريقتنا التي سلكناها أن نضيف الشك إلى اليقين والمجهول إلى المعلوم "[67] فالبيروني في نصه هذا يريد أن يؤسس طريقة أو منهجاً نقدياً يختلف عن المناهج السائدة آنذاك ، ومن بديهيات هذا المنهج مرحلة النقد واعتماد المشاهدة الحسية وهي المرحلة الثانية من مراحل الموضوعية .

2-مرحلة الاعتماد على العيان والمشاهدة الحسية :

كان التاريخ عبارة عن أخبار متوارثة ينقلها السلف إلى الخلف ، على أنها حقائق تاريخية إلا أن البيروني ، ضعف هذه النظرية فقال "ليس الخبر كالعيان لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه ، في زمانه وجودة وفي مكان حصوله "[68] ،وفي هذا النص يميز البيروني بين الخبر والعيان فالخبر جاء من دون مشاهدة مباشرة ، في حين إن المشاهدة تنقل لنا الأخبار بدقة زمانية ومكانية غير متوفرة في الخبر وقد بين البيروني سبب هذا التميز فقال " ولولا لواحق أفات الخبر كانت فضيلته تبين على العيان والنظر " [69].

فالخبر عرضة إلى الزيادة أو النقصان وإلى الذاتية السلبية بقدر كبير ، أما العيان أو الملاحظة الحسية التي يركن إليها المؤرخ فليس فيها من ذلك شيئ بل المؤرخ يباشر رؤيته للواقعة فيدونها دون زيادة أو نقصان ، وعلى الأقل أن أعتماد الملاحظة الحسية في تدوين الأحداث التاريخية تكاد تكون أقل خطراً إن لم نقل معدوم ، ومن هنا جاء أعتماد البيروني عليه فقال "العيان أولى من الخبر "[70] .

وهذا يعني أن البيروني يريد ان يعتمد وسيلة جديدة غير الوسيلة القديمة في جمع المادة التاريخية وبيان قيمتها ، وهذه الوسيلة أو المعيار هو المعيار الحسي ، على أساس أن جمع المادة التاريخية عن طريق سماع الأخبار تتداخل فيها عوامل ذاتية كثيرة ، وهذا هو الذي يعرض المعرفة التاريخية إلى التشكيك في كونها مادة تاريخية يمكن أن تقيم كأي مادة علمية تبنى عليها نظرية علمية معينة .

فالخبر في نظر البيروني لا يمكن أن يعد مادة علمية في التاريخ، لأن الخرافة تكثر فيه وأن روايته تمر بسلسلة من الرواة ومن ثم من المحتمل أن يتعرض للزيادة أو النقصان إلا ما ندر وهذا يعني أن الخبر يعبر عن الذاتية أكثر من تعبيره عن الموضوعية وهذا ما يجعل البيروني يقترب كثيراً من المؤرخين المحدثين في جعلهم التاريخ علماً ، ولا سيما أننا قد وجدنا البيروني يقبل الأخبار ويرفضها بناء على (العيان) ، فيقول وهو يدرس تاريخ الهند – عن أخبارهم "لا يمكن قبولها لمخالفة العيان لنتائجها "[71] .

فالعيان أو الملاحظة الحسية أو المشاهدة ، دخلت بوصفها عنصراً جديداً ، في التحقق من الأخبار ، وهي عنصر محايد لا يدخل المؤرخ فيها بزيادة أو نقصان سوى ما يعطيه الواقع الموضوعي المباشر ، فإما أن يكون الخبر صحيحاً أو غير صحيح ، فإذا كان صحيحاً طابق الواقع وإذا لم يكن صحيحاً كان مخالفاً ، وقد تحدث البيروني عن أهمية عنصر المشاهدة الموضوعية بشكل فهم منه أنه صاحب نظرية جديدة من الذاتية والموضوعية التاريخية يقترب كثيراً مما طرحه علماء التاريخ الغربيون أمثال وولش إذ قال " أن الخبر أو الرواية تعتبر حقيقة إذا طابقت الواقع "[72] .

وعبر الموازنة بين ما يقول البيروني ووليش نستطيع أن نخرج بمعادلة تقول:

أن الصدق التاريخي = الخبر مطابق للواقع

وأن الكذب التاريخي = الخبر غير مطابق للواقع

ولكن هذه المعادلة تخلق لنا أشكالاً لو فهمت بوصفها معياراً لكل الأخبار ومن ضمنها أخبار الوحي ؟

صحيح أن البيروني يعد – عبر النصوص السالفة إذ أعتمد المشاهدة بوصفه معياراً لصحة الأخبار أوعدمها من المؤسسين للاتجاه الموضوعي في التاريخ إلا أن أخبار الوحي التي تتحدث عن بداية الخلق وما إلى ذلك من أخبار تتصل بماضي النبوات ، إذ ليست الوسيلة إلى تصديقها بالطريقة الحية المباشرة بل يقول البيروني "في مثل هذه الحالة لا بد من وحي منزل على نبي مرسل "[73] .

ومن هنا يوسع البيروني مفهوم الموضوعية في التاريخ ، ومن ثم يخرج منها ما كان مطابقاً للواقع ومن ثم اشتمل ذلك على ما كان مطابقاً للواقع الحسي والواقع الذي يضم الحاضر والماضي الذي يخبرنا عن نبي مرسل أو مخبر ثقة ، فإذا كانت الموضوعية الغربية أو الإتجاه الوضعي لا يؤمن إلا بما يرى ويرفض كل الأخبار التي تتعلق بالميتافيزيقا ، فأن البيروني جاء بمفهوم جديد للموضوعية يستوعب فيها التاريخ ماضيه وحاضره ومستقبله وذلك عن طريق وسيلة أوثق أو أصدق من وسيلة الإنسان العادي ، إذ أخبار الماضي بكل أنواعها "الفلكية وغير الفلكية ، وقضايا التاريخ (لا تقبل إلا بحجة واضحة أو مخبر عن الأوائل أو المبادئ ، موثوق بقوله ، متقرر في النفس صحة الاتصال الوحي والتأييد به " [74].

من هنا يظهر النص ، أن معياراً جديداً دخل على المعرفة التاريخة وعلى مفهوم الموضوعية عنده وهذا المعيار يتمثل بما يأتي :

1. بالحجة الواضحة ، ويقصد بها الحجة العقلية البرهانية الرياضية .
2. أو مخبر عن الأوائل ، أي الإنسان العالم من الأوائل ممن يوثق بأقواله وأخباره ، لأعتماده على المبادئ العقلية التي لا تقبل من الأخبار إلا ما قبلها العقل ،و مثل هذا الإنسان دلت عليه البراهين صحة أتصال الوحي به .

فأخبار الماضي لا ترفض لمجرد عدم إمكانية التحقق منها مباشرة بل تقبل وتكون صادقة بصدق الوسيلة كالوحي والنبي ويجعلها معرفة حقيقة تساوي المعرفة التاريخية المباشرة .

وتنتهي الأزمة التي خلقتها التيارات الوضعية الغربية المشككة بأخبار الميتافيزيقا وما يتعلق بأخبار الأديان ، وبهذا نكون قد توصلنا إلى مفهوم الموضوعية التاريخية عن طريق البيروني لمفهوم أفضل و أوسع لما هي عليه الموضوعية الغربية التي تقبلها بعض الباحثين العرب من دون مناقشة وتحليل .

الخاتمة

أن مشكلة الذاتية والموضوعية من المواضيع المنهجية في البحث التاريخي ، والتي تهتم بكيفية الوصول إلى الحقيقة التاريخية وكتابتها ، وقد تحدث عن هذه المشكلة كثير من المؤرخين الغربيين خاصة في القرن العشرين وبينوا إمكان المؤرخ أن يكون موضوعياً لو أن لم يقحم ميوله وأهواءه على التاريخ ، وقد شاع مثل هذا الأتجاه بقوة في القرن العشرين وتزعمه مجموعة من المؤرخين الغربيين وعلت أصواتهم بضرورة جعل التاريخ علماً بالاستناد إلى الكتابة الموضوعية والابتعاد عن الذاتية ومن أمثال هؤلاء بيري وجينسون ورانكس ومارو وأخرين .

وأظهرت هذه البحوث أهتماماً كبيراً بهذا الموضوع وكأن البحث كان فيه مبتكراً ، لم يتحدث عنه علماء الإسلام ولم يتطرق إليه القرآن من قبل ، إلا أن القرآن قد أهتم بمشكلة الذاتية وتحدث عنه بمصطلح (الهوى) بكل أنواعه وأشكاله ونادى(بأن من نهى النفس عن الهوى فأن الجنة هي المأوى) على الأهتمام بالموضوعية والبحث عنها بدليل (ولاتقف ما ليس به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) والآيات كثيرة ولو تتبعناها لوقفنا على نظرية نسترشد بها من أعتماد الموضوعية والبعد عن الذاتية غير عابثين بالتقليد العمى في ما يردده الناس من أقوال وأخبار وروايات متحققين من ذلك في تعميق الموضوعية حينما يجعل الأنسان شاهداً على نفسه وذلك بقوله تعالى (يأيها الذين أمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء ولو على أنفسكم) ، وقد تأثر البيروني في هذه المنهجية وعمق مفهوم الموضوعية بأعتماده على مرحلتين وهما :

1. مرحلة النقد .
2. مرحلة الأعتماد على العيان والمشاهدة الحسية .

وأعتبر أن الصدق التاريخي = الخبر مطابق للواقع
وأن الكذب التاريخي = الخبر غير مطابق للواقع

وقد وسع من مفهوم الموضوعية أكثر مما أعتمده المؤرخون الغربيون ، وذلك من خلال الرؤية الإسلامية في قضية أعتماد الخبر ، حيث أن الموضوعية الإسلامية لا تقتصر على واقع المادة التاريخية مباشرة وإنما تكون هذه المادة علمية إذا جاءت (من وحي منزل على نبي مرسل) أو (عن خبر من الأوائل أو المبادئ موثوق بقوله ، متقرر من النفس صحة اتصال الوحي والتأييد به) .

وبذلك تتسع موضوعية البيروني لتشمل الحاضر والماضي من التاريخ وتعزز أخبار الماضي إذا جاءت عن نبي مرسل أو مخبر ثقة ، وبذلك تنتهي الأزمة التي خلقتها التيارات الوضعية الغربية المشككة بأخبار الماضي وأخبار الميتافيزيقيا وما يتعلق بأخبار الأديان .

الهومش

1. سورة الحجرات /6
2. ينظر: عبد الكريم دوحان ، دراسات في منهج البحث التاريخي والأدبي ، ط1 ، مؤسسة المختار القاهرة ، 2009،ص142.
3. غسان فيرنانس ، الموضوعية في الموسوعة الفلسفية العربية ، معهد الأنماء العربي ، بيروت ،(د.ت)، م^2 ، ص351 .
4. صائب عبد الحميد ، علم التاريخ ومناهج المؤرخين ،ط2، مركز الغدير ، بيروت ، 2008 ،ص71 .
5. ينظر: رسمي نجيب محمود ، المنطق الوضعي ، مكتبة الأنجلو مصرية ، ط5 ، 1980، ص305 .
6. صلاح قنصوة ، الموضوعية في العلوم الإنسانية ، دار الثقافة ، مصر ، (د.ت)، ص:ز .
7. عبد الكريم دوحان ، مرجع سابق ، ص50 .
8. ينظر: صلاح قنصوة ، مرجع سابق ، ص59 .
9. ينظر: المرجع السابق ، والصفحة ذاتها .
10. ماهر عبد القادر محمد علي ، نظرية المعرفة العلمية ، دار المعرفية الجامعية ، الإسكندرية ، 1987، ص35 .
11. سورة النازعات /40 .
12. سورة الجاثية /23 .
13. الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، بيروت ، 1426 ش ق ، مادة (هوى).
14. الشريف أبو الحسن الجرجاني التعريفات ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1956،ص14 .
15. سورة الأسراء /36 .
16. سورة الحج /8 .
17. ينظر: صلاح قنصوة ، مرجع سابق ، ص62-63 .
18. سورة الأعراف /158 .
19. سورة ق /6 .

20. سورة الروم /9 .
21. سورة الغاشية / 17 .
22. سورة العنكبوت /20 .
23. سورة يونس /101 .
24. الأصفهاني ، المصدر السابق ، مادة (نظر) .
25. ينظر: الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، 1944 ، ص4 ، ص15
26. سورة الأنبياء /16 .
27. سورة الحجرات /6 .
28. محمد عبد الجابري ، بنية العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2004 ، ص28 .
29. سورة الفلق /1-3 .
30. أبو الريحان البيروني ، تحقيق ماللهند من مقولة في العقل ومرذولة ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، 1958 ، ص1 .
31. سورة النساء /135 .
32. عبد الكريم دوحان ، المرجع السابق ، ص45 .
33. صائب عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص14 .
34. ينظر: أحسان حلاق ، مناهج الفكر والبحث التاريخي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 2004 ، ص5 .
35. أبو الريحان البيروني ، القانون المسعودي ، مطبعة مجالس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الدكن ، الهند 1373هـ ، ط ،ص4 .
36. علي أحمد الشحات ، أبو الريحان البيروني ، دار المعارف ، مصر ،1968،ص229.
37. ينظر: قيس هادي احمد ، نظرية العلم عند فرنسيس بيكون ، مطبعة المعارف ، بغداد ، 1985 ، ص147 وما بعدها .
38. أدوركار ، ماهو التاريخ ، ترجمة ماهر الكيالي وبيار عقل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، القاهرة ، 1976 ، ص 62 .
39. هـ، أ ، مارو ، من المعرفة التاريخية ، ترجمة جمال بدران ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1971 ، ص3 .
40. المرجع نفسة ، ص186 .
41. ارنست كاسرر ، في المعرفة التاريخية ، ترجمة أحمد حمدي محمود ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د.ت) ، ص12 .
42. و.هـ، وولش ، مدخل إلى فلسفة التاريخ ، ترجمة أحمد حمدي محمود ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، 1962، ص134
43. أبو الريحان البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص2 .
44. أبو الريحان البيروني ، تمهيد المستقر لمعنى الممر ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، 1948 ، ط1 ، ص62 .
45. أبو الريحان البيروني ، تحقيق ماللهند ، ص4 .
46. المصدرنفسه ، ص2 .
47. المصدر نفسه، ص2 .
48. المصدر نفسه ، ص2.
49. المصدر نفسه ،ص2.
50. المصدر نفسه ، ص2.
51. المصدر نفسه ،ص2
52. المصدر نفسه ؛ وهنا يستخدم البيروني مصطلح (المتخرصين) ويقصد به المؤرخ الموضوعي وليس المؤرخ السلبي لآن المتخرص بالمعنى القرآني هو الكذاب ، أنظر الأصفهاني مادة (خرص) .
53. المصدر نفسه ،ص2 .
54. المصدر نفسه ، ص3 .
55. سورة النساء /135 .
56. ينظر: الراغب الأصفهاني ، المصدر السابق ، مادة(قَوَمَ).
57. المصدر نفسه ، مادة (عدل) .
58. المصدر نفسه ، مادة (شهد) .
59. المصدر نفسه ،مادة(حق) .
60. أبو الريحان البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق أدورد سخاو ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) ، ص5 .
61. المصدر نفسه ، ص5 .
62. المصدر نفسه ، ص14 .
63. أبو الريحان البيروني ، القانون المسعودي ، ص85 .
64. البيروني ، الآثار الباقية ، ص17 .
65. البيروني ، تحقيق ماللهند ، ص18 .
66. البيروني ، القانون المسعودي ، ج1 ، ص4-5 .

67. البيروني ،الآثار الباقية ، ص68 .
68. البيروني ، تحقيق ماللهند ، ص1 .
69. المصدر نفسه ، ص1 .
70. البيروني ، القانون المسعودي ، ج1 ، ص52 .
71. البيروني ، تحقيق ماللهند ، ص72 .
72. وولش ، مدخل إلى فلسفة التاريخ ، ص66 .
73. البيروني ، القانون المسعودي ، ج3 ، ص471- 472 .
74. البيروني الآثار الباقية ، ص25 .

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم .
2. أبو الريحان البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق أدورد سخاو ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) .
3. ـــــــــ ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الديك ، الهند ، 1958 .
4. ـــــــــ،تمهيد المستقر لمعنى الممر ، ط1 ، مطبعة جمعية دائرة العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، 1948 .
5. ـــــــــ ، القانون المسعودي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الدكن ، الهند ، 1373هـ .
6. أحسان حلاق ، مناهج الفكر والبحث التاريخي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 2004.
7. أدوركار ، ماهو التاريخ ، ترجمة ماهر الكيالي وبيار عقل ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1976.
8. أرنست كاسرر ، في المعرفة التاريخية ، ترجمة أحمد حمدي محمود ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د.ت) .
9. الراغب الأصفهاني ، مفردات الفاظ القرآن ، تحيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، دمشق ، ودار الشامية بيروت ، 1426هـ ، مادة (هوى) .
10. رسمي نجيب محمود ، المنطق الوضعي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط5 ، 1980 .
11. زكي نجيب محمود ، المنطق الوضعي ، مكتبة الأنجلو مصرية ، ط5 ، دار النشر ، مصر ، 1980 .
12. الشريف أبو الحسن الجرجاني ، التعريفات ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1956.
13. صائب عبد الحميد ، علم التاريخ ومناهج المؤرخين ، ط2 ، مركز الغدير ، بيروت ، 2008 .
14. صلاح قنصوة ، الموضوعية في العلوم الإنسانية ، دار الثقافة ، مصر ، (د.ت) .
15. عبد الكريم دوحان ، دراسات في منهج البحث التاريخي والأدبي ، ط1 ، مؤسسة المختار ، 2009 .
16. علي أحمد الشحات ، أبو الريحان البيروني ، دار المعارف ، مصر ، 1968 .
17. غسان فيرنانس ، الموضوعية في الموسوعة الفلسفية العربية ، معهد الأنماء العربي ، بيروت ، م^2 ،(د.ت) .
18. قيس هادي أحمد ، نظرية العلم عند فرنسيس بيكون ، مطبعة المعارف ، بغداد ، 1980.
19. ماهر عبد القادر محمد علي ، نظرية المعرفة العلمية ، دار المعرفية الجامعية ، الإسكندرية ، 1987.
20. محمد عبد الجابري ، بنية العقل العربي ، ط7، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2004 .
21. مصطفى عبد الرزاق ، تمهيد التاريخ والفلسفة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، 1944 .
22. هـ ، أ، مارو ، من المعرفة التاريخية ، ترجمة جمال بدران ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، 1971.
23. و.هـ ، وولش ، مدخل إلى فلسفة التاريخ ، ترجمة أحمد حمدي محمود ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، 1962 .